النثر

المقدمة :

زاد الاهتمام بالنثر منذ انبثاق نور الاسلام وقيام الدولة الجديدة زمن الرسول محمد صلى عليه وسلم . وأخذ ينمو ويتطور ويزداد اتساعاً في عهد الخلفاء الراشدين ثم في دولة بني أمية . ولا سيما بعد الفتوحات الكبيرة وتوسّع رقعة الحكم الاسلامي شرقاً وغرباً . وزيادة مصالح مركز الخلافة . وحاجة الخلفاء الى الاتصال بالولاة والعمال والقواد .

وبدأ كثير من الكتاب بتجويد الكتابة واتقانها واظهارها باسلوب جزل متين. وقد كانت في أول أمرها تميلُ الى الايجاز الشديد . واختصار المعاني بأقل العبارات وأقصرها . والتمسك بالأمانة والصدق والصراحة التي درج عليها العرب وأوصى بها الدين الحنيف .

وحينما تقدم العهد بالدولة الأموية . ومضى الجيل الأول . مالت الكتابة الى التنويع والإطناب والتوسع في المعاني والتأنق في صياغة الجمل والعبارات . حتى أصبح لها أصول محددة وقواعد مقننة . وقد ظهرت ثمرتها جليةً واضحةً عند عبدالحميد بن يحيى (ت ١٣٢ هـ) كاتب مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية في دمشق . وقد أجمع النقاد والمؤرخون على أنه واضع أسس الكتابة الفنية الأول في النثر العربي . قال ابن النديم : « عنه أخذ المترسلون . ولطريقته لزموا . وهو الذي سَهّل سبيل البلاغة في الترسل »(٥٨٨) . وقال المسعودي : « صاحب الرسائل والبلاغات .وهو أول من أطال الرسائل . واستعمل التحميدات في فصول الكتب . فاستعمل الناس ذلك بعده »(٥٨٩) .

كان عبدالحميد يُعنى في كتاباته بتنسيق العبارات وتوازنها . وأخذ الجمل بعضها برقاب بعض . والتبسط والاطناب . واستخدام السجع والازدواج من غير تكلف . وقد تجلّت طريقته في رسالته الدقيقة المحكمة التي وجهها الى الكتاب ليتخذوها دليلاً لهم في عملهم الكتابي(٥٩٠) . ومن جميل ماوصل الينا من نثره أيضاً رسالة الى عبدالله

---

(٥٨٨) الفهرست ص ١٧٠ .

(٥٨٩) مروج الذهب ٣ : ٢٤٨ .

(٥٩٠) تنظر الرسالة كاملة في صبح الأعشى: ٨٥ ـ ٨٩

ابن مروان على لسان أبيه الخليفة مروان بن محمد وكان قد أرسله لمحاربة الضحّاك بن قيس الشيباني الخارجي . وهي طويلة تقع في تسع وثلاثين صفحة(٥٩١) . وله رسالة قصيرة بعث بها الى أهله وذويه وهو منهزم مع مروان بن محمد من بطش العباسيين . منها قوله : « كتبتُ اليكم والأيامُ تزيدُنا منكم بُعداً . واليكم صبابةً ووجداً فإنْ تتمّ البليةُ الى أقصى مُدّتها . يكُن آخرُ العهد بكم وبنا . وانْ يلحقْنا ظفَر جارحٌ من أظفارِ مَنْ يليكم نرجعْ اليكم بذلّ الاسار والصغار . والذلُّ شرُّ دار . والأمْ جار . يائسين من روح الطمع وفسحة الرجاء نسألُ الله الذي يُعزُّ مَنْ يشاء . ويُذلُّ مَنْ يشاء أن يهبَ لنا ولكم ألفةً جامعةً في دارٍ آمنة . تجمعُ سلامةَ الأديان والأبدان . فانه ربُّ العالمين وأرحم الراحمين »(٥٩٢)

ولما قامت الدولة العباسية عظُمَ شأن الكتابة وزاد الإقبال عليها بعد أن انفتح أمامها مجالات واسعة . وأصبح للكتّاب مقام محمود لدى الخلفاء والوزراء والولاة . وكان للموهوبين منهم دور بارز في تسيير شؤون الدولة السياسية والادارية والمالية .

كان الكتّابُ في العصر العباسي مثقفين ثقافة عالية ومزودين بصنوف المعرفة . تراهم يحفظون القران الكريم وشيئاً كبيراً من الحديث النبوي وكلام البلغاء وخطب الصحابة والخلفاء ووصاياهم وقصائد كبار الشعراء اضافة الى تزودهم بثروة لغوية ووقوفهم على علوم الأمم الأخرى مباشرة أو بعد ترجمتها الى اللغة العربية .

لقد توسّعت الآفاق أمام الكتابة بعد أن احتضنت الدولة العباسية الأمة الاسلامية وتولّت رعايتهم وحمايتهم والنظر في شؤونهم السياسية والثقافية والعمرانية .. فنجد هناك كتابات في التفاويض . والتقاليد . والمبايعات . والعهود . والعقود . والتهاني . والتعازي الى جانب التواقيع . والخطب . والرسائل . والمنشورات . والوصايا . وهناك أيضاً كتابات اخوانية كالشفاعة . والعتاب . والشكوى . والاعتذار . واستنجاز الحاجات .. وكتابات في أغراض تأديبية بأسلوب القصص أو السّير على ألسنة الحيوان .

وقد سلك الكتّاب آنذاك أسلوبين في كتاباتهم . الأول الأسلوب السهل المرسل العذب مع القصد في الألفاظ بقدر مايتطلبه المعنى من الوضوح والجلاء . ورائد هذا الأسلوب ابن المقفع . وهاهو ذا يوصي أحد الكتّاب بقوله : « اياك والتتبع لحوشي

---

(٥٩١) صبح الأعشى ١٠ : ١٩٥ ـ ٢٣٣ .

(٥٩٢) الوزراء والكتاب ص ٤٦ .

الكلام طمعاً في نيل البلاغة . فإنَّ ذلكَ هو العيُّ الأكبر » وقوله لآخر : « عليكَ بما سَهُلَ من الألفاظ مع التجنب لألفاظ السَّفْلة » ؛ وسار على هذا الدرب الكثيرون منهم عمرو بن مسْعدة ، وسهل بن هرون وأحمد بن يوسف ...

أما الأسلوب الثاني فهو أسلوب التأنق واستيفاء المعنى باستقصاء أجزائه . وتقطيع الكلام الى فقر مرسلة ومسجعة . والاستطراد الى الأخبار والنوادر والتراجم والاكثار من الشواهد الشعرية ومأثور الكلام كما نرى ذلك في أسلوب الجاحظ الذي سنتناوله بالشرح والتوضيح في ترجمته .